

سُورَةُ الحِجرِ

سُورَةُ الحِجْرِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة

سورة الحِجر مكّيَّةٌ، على المأثور الأصحّ عند المفسّرين

سورةُ الحِجر هي السورة الخامسة عشرةَ في ترتيب المصحف، وعدد آياتها تِسْعٌ وتسعون آية باتِّفاق العادّين(1).

وهي سورة مكّيَّة نزلت قبل الهجرة باتِّفاق(2)، ومِنَ المفسرين مَن استثنى آياتٍ مدنيَّةً منها(3)، والصَّحيح القول بأنَّ السّورةَ مَكِّيَّةٌ بتمامها(4).

أمّا ورودُ قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ [الحجر: 90 - 91]؛ فإنَّه لم يُبتلَ الإسلام يومئذٍ باليهود والنَّصارى ذاك الابتلاء، فالظّاهر أنَّ الآيتين تذكران قومًا نهضوا في أوائل البعثة على إطفاء نور القرآن، وبعَّضوه أبعاضًا؛ ليصدّوا عن سبيل اللّه، فأنزل اللّه عليهم العذاب وأهلكهم(5)، وهذا "يشمل أهلَ الكتابَيْن وغيرهم من المشركين، وكلَّ مَن اقتسم كتابًا للّه بتكذيب بَعْضٍ وتصديق بَعْضٍ"(6).

وأمّا ترتيب نزولها؛ فقد ذَكَرَ بعضهم أنَّ ترتيبها الثّالثة والخمسون بين سورتَي يوسف والأنعام(7)، وزعم بعضهم أنَّها الرّابعَةُ

---

(1) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 173.

(2) مقاتل، تفسير مقاتل: 2/198، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/45، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/465، والشوكاني، فتح القدير: 3/120.

(3) لزيادة تفصيل يرجى الرّجوع إلى: الترمذي، سنن الترمذي: 5/296، وأحمد، المسند: 1/305، والواحدي، أسباب النزول، ص: 186، وابن حبّان، الثقات: 8/96، وابن الجوزي، الضعفاء والمتروكين: 2/231، وابن حجر، تقريب التهذيب: 2/380، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/397، والماوردي، النكت والعيون: 3/147، والطبرسي، مجمع البيان: 6/501.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/131، 17/94، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/5، 33، ودروزة، التفسير الحديث: 4/34، ودروزة، التفسير الحديث: 4/34.

(5) الطبطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: 12/193.

(6) طنطاوي، الوسيط: 8/82.

(7) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/43.

والخمسون في ترتيب النُّزول[1]، والحقُّ أنَّ التَّرتيب النُّزوليَّ ليس قطعيًّا في ثبوته لافتقاده إلى صحَّة الرِّوايات.

ظروف نزول السّورة حافلة بالأحداث والتَّحديّات، للمسلمين في العهد المكّي

والمدَّة الزَّمنيَّة التي نزلت فيها هذه السّورة هي ما بين السنة الرابعة والسنة العاشرة للبعثة، وهو زمنٌ حافل بأحداث جِسام عاشها المسلمون الأوائل في مكَّة، امتدت إلى زمن وفاة عمِّه أبي طالب وزوجته خديجة، حيث سُمّي ذلك العام بعام الحزن؛ بسبب توقُّف دعوة النَّبيِّ ﷺ فيه، وبسبب ما لقيه من أذًى في داخل مكَّة وفي خارجها، فوجد النَّبيُّ ﷺ في نفسه ما وجد مِنْ كَبَدٍ وعناء، حيث فقد في أثناء ذلك كلِّه السَّند العاطفيَّ والعقليَّ بفَقْدِ زوجته خديجة، وفقَدَ فيها السَّند الاجتماعيَّ والسّياسيَّ بوفاة عمِّه أبي طالب، فجاءت السّورة تحمل في طيّاتها ما تثبِّت به فؤاده، وترفعُ من معنويّاته، وخُتِمت بالتَّسرية عن النَّبيِّ ﷺ، وبتوصيته بالثَّبات على دعوته، فالسّورة نزلت في جوٍّ مشحونٍ يمثِّل ذروة الصِّراع بين الحقِّ والباطل في مرحلة ساخنة من مراحل الدَّعوة في مكَّة.

أسماء السّورة:

سورةُ (الحِجر) لمْ تُسَمَّ باسمٍ غيرِه في الأثر

ليس لهذه السّورة في جميع المصاحف وكُتُبِ التَّفسير والسُّنَّة إلّا اسمٌ واحد، هو (الحِجْر)، وهو اسمها الثابتُ رِوايةً وشُهرةً[2]، وقد ذكروا في سبب تسميتها به: ورود هذا الاسم فيها دون غيرها، وأصحابُ الحِجْرِ هم قوم صالح عليه السلام؛ إذ كانوا ينزلون الحِجْرَ - بكسر الحاء وسكون الجيم - وهو المكان المَحْجورُ، أيْ: المنوع أنْ يسكنه أحد غيرهم لاختصاصهم به.

ويجوز أنْ يكون لفظُ الحِجر، مأخوذًا من الحجارة؛ لأنَّ قوم صالحٍ عليه السلام كانوا يَنْحِتونَ بيوتهم من أحجار الجبال وصخورها، ويبنون بناءً محكمًا جميلًا[3].

(1) دروزة، التفسير الحديث: 4/34.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/5.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/6.

والحقُّ أنَّه لا بدَّ من البحث عن رابط أقوى بين اسم السّورة وموضوعها، فكثير من السّور انفردت ببعض الأسماء، ولم تُسمَّ باسمها.

ولفظ الحِجر دالٌّ على المنعة والقوَّة والحفظ، و"الحَجَر: هو الجوهر الصُّلب المعروف، والحَجْر والتحجير: أنْ يُجعل حول المكان حِجارَةٌ، ويقال للعقل: حِجْر؛ لكون الإنسان في منعٍ منه ممّا تدعو إليه نفسه، وفلان في حَجْرِ فلان، أيْ: في منع منه عن التَّصرُّف في ماله وكثير من أحواله، وحِجْر القميص أيضًا: اسم لما يُجعل فيه الشيء، فَيُمْنَعُ، وحُجِّر القمرُ: صار حوله دائرة، ومِحْجَر العين منه، وتَحَجَّرَ كذا: تصلَّب وصار كالأحجار"[1].

قصة أصحاب الحِجر، بيانٌ لسنَّة الله تعالى في حفظ أوليائه، ودحر أعدائه

وترتبط التّسمية ارتباطًا وثيقًا بمحور السّورة العام، وبمحاورها التّفصيلية، فالسّورة أوضحت أنَّ هلاك الأمم كائنٌ بالإسراف في التَّمتُّع بالدُّنيا والانشغال بها عن الآخرة، متغافلين عن الحكمة من خَلقهم ووجودهم، وإنَّ كثرة التَّلذُّذ والتَّنعُّم بالدُّنيا يؤدّي إلى طول الأمل فيها وقلَّة العمل للآخرة، فمن طال أمَلُهُ؛ قلَّ عَمَلُهُ؛ وأنَّ خير علاجٍ لطول الأمل، هو الإكثار من ذكر الموت، وعبادة اللّه تعالى حتّى انْقِضاءِ الأجل[2].

وبناءً على هذا فإنَّ قصة أصحاب الحِجر هي الأنموذج الَّذي يحقِّق محور السّورة ومستلزماته في بيان سنَّة اللّه تعالى في حفظ دينه ورسله، وفي ديمومة النِّعم ما دام النّاس على دين الحقِّ، وفي بيان أثر الترفُّه في زوال النِّعم، حيث نجد أنَّ أصحاب الحِجر قد أفرطوا في الترفُّه بالنِّعم، وأخلدوا إلى الأرض، فاغترّوا بطول الأمل، وشغلهم التَّلذُّذ بالمتاع الزّائل، فما حفظ اللّه عليهم النِّعَمَ، بل قلبها عليهم إلى نقمة بصيحة واحدة.

(1) الرّاغب، المفردات: (حجر).
(2) طهماز، الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحجر، ص: 124.

❁ بيان محورها العام والموضوعات التّي تأتلف وتلتفُّ حوله:

إبراز سنَّة من سنن الله تعالى، في حفْظِهِ دينَه وأوليَاءَهُ، وإهْلاكِ المبطلين

يقول البقاعيُّ: "فمقصود هذه السّورة اعتقاد كون القرآن بلاغًا جامعًا للأمور الموصلة إلى الله، مغنيًا عن جميع الأسباب، فلا ينبغي الالتفات إلى شيء سواه ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ﴾، ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ [الحجر: 88] ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: 99]، وكان الجمع بين الوصفين الدّالَّيْنِ على الجمع إشارةً إلى الردِّ عليهم في جعلهم القرآن عِضين"[1].

إبراز المصير البئيس، للكفرة المكذّبين بالدّين

ويمكن القول بعد تقليب النّظر في آيات سورة الحِجْرِ: إنَّ محور سورة الحِجر الرئيس هو: إبراز المصير المَخوف الّذي ينتظر الكافرين المكذِّبين، ويدور السياق حول هذا المحور بعدَّة أشكال، سواء في ذكر سنن الله في المكذِّبين، أو إبراز عظمة الله وقدرته في ما يُشاهَد من الكون، أو في وصف مشاهد يوم القيامة، أو ذكر قصص السّابقين وعاقبتهم كقوم لوط، وأصحابِ الأيكة، وأصحابِ الحِجر، وما تخلَّل ذلك كلَّه من تعقيبات والَّذي يرجع إلى المحور الرئيس، ويدور حوله[2].

الإنسان بين الأمل والأجل، ومن طال أمله، تمحّض للدّنيا عمله

ويمكن أنْ يكون محور سورة الحِجْرِ مُعَنْوَنًا في: (الإنسان بين الأمل والأجل)، فالسّورة أوضحت أنَّ هلاك الأمم كائنٌ بالإسراف في التَّمتُّع بالدُّنيا والانشغال بها عن الآخرة، وإنَّ كثيرًا من النّاس يخطئون عندما يجعلون الدُّنيا غاية لخَلقهم، ويغفلون عن الآخرة وما ينتظرهم فيها من حساب، ولهذا تراهم منصرفين بكلِّ طاقاتهم إلى الدُّنيا غافلين أو مُتَغافِلِينَ عن الحكمة من خَلقهم ووجودهم، وهي عبادته سبحانه وعمارة الأرض بطاعته، وإنَّ كَثْرَةَ التَّلَذُّذ والتَّنعُّم بالدُّنيا يؤدي إلى طول الأمل فيها وقلَّة العمل للآخرة،

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/3.
(2) مسلم، مصطفى وآخرون، موسوعة التّفسير الموضوعي: 4/95.

فمن طال أَمَلُهُ؛ قلَّ عَمَلُهُ؛ لأنَّ الأمل الطويل يُشْغِلُ صاحبه عن أجله، وأنَّه كثيرًا ما تتجاوز الآمال حدود الآجال، وأنَّ خير علاج لطول الأمل هو الإكثار من ذكر الموت، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين(1).

بيان سنَّة الله تعالى الرّاسية، في حماية رسله وحفظ كتبه الهادية

والحقُّ أنَّ محور السّورة الكريمة يضمُّ كلَّ ما تقدَّم ذكره من آراء، حيث تمثِّل هذه الآراءُ دعائمَ بارزة، وخطوطًا فرعيَّة لمحور السّورة المختار؛ فالسّورة الكريمة قد نزلت في جوٍّ مشحونٍ بالعدائيَّة المُفرِطَةِ من قريش للنبيِّ ﷺ والمؤمنين معه، وقد احتاج المسلمون مع هذا الظّرف إلى التَّسرية والتَّثبيت لهم على الحقِّ، فقام محور هذه السّورة على بيان سنَّة اللّه تعالى في حفظ دينه من خلال حفظ رُسُلِهِ وَكُتُبِهِ، وكذلك في حفظ أتباع هذا الدّين وفي إهلاك أعدائه.

مقتضيات محاور السّورة تتمثّل في العناصر الآتية:

اقتضى ما تقدّم من توضيحٍ للمحاور الأساسية للسّورة أنْ يُبَيِّنَ اللّه أنَّ دينه وخَلْقَه قائمان على الحقِّ في تضاعيفها، فقال عن الملائكة: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، و﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: 55]، و﴿وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الحجر: 64]، و﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: 85].

إقامة الحقّ وحفظ الدّين، من الغاوين والمستهزئين

ومن المقتضيات أيضًا: أنْ تُبَيِّنَ السّورةُ مظاهرَ حفظ اللّه لدينه وللحقِّ الَّذي قام عليه أمرُ الدُّنيا والآخرة، فمن ذلك أنَّ اللّه تعالى قد تعهَّد بحفظ كتابه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، وبحفظ ملكوته: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [الحجر: 17]، وبحفظ نبيِّه ﷺ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: 95]، وبحفظ عباده من إغواء الشَّيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا

(1) طهماز، الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحجر، ص: 124.

﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: 42]، وتعهَّد اللّه تعالى كذلك بإهلاك أعداء هذا الدّين كما بَيَّنَ عن نهايات عصور الظالمين(1).

القَصَصُ المبين، ومشاهد المغالبة والتّمكين

واقتضت المحاور أيضًا أنْ تأتي المشاهد القصصيَّة في السّورة الكريمة متَّسقة معها؛ فمشهد قصَّة آدم عليه السلام سُلِّط الضوء فيه على حفظ اللّه لعباده الصّالحين في مقابل تعهُّد إبليس بتزيين المعصية والإغواء لذرّية آدم، وفي جانب قصَّة إبراهيم عليه السلام كان التَّأييد من اللّه لإبراهيم عليه السلام بأنْ أعطاه الذُّرّيَّة الَّتي حفظت دينه في عقبه إلى يوم الدّين، وفي قصَّة لوط عليه السلام حفظ اللّه له أهْلَ بيته من المؤمنين وأهلك المفسدين منهم، وكذلك الحال في قصَّتَي أصحاب الأيكة وأصحاب الحِجر.

معوّقات التقدّم الإنسانيّ، ومظاهر الإغواء والتّزيين

واقتضت محاور السّورة الكريمة أنْ تُظهر لنا ما يعوقُ البشر عن دوام الحفظ والبقاء أو مسوِّغات زواله من قِبَلِ البشر، وكان من أهمِّها مظاهر الإتراف، والمبالغة في التمتُّع بالوسائل المعينة على الاستقرار البشريِّ؛ لتصبح غاية في نظر أهلها بدلًا من أنْ تكون وسيلة للعيش، وطول الأمل ونسيان الأجل، فقال عن الكافرين: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، ولهذا اختصَّت سورة الحِجر بذكر وسيلة إغواءٍ لإبليس لم ترد في غيرها من السّور الَّتي ذكرت قصَّة آدم، وهي وسيلة التَّزيين: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر: 39]، وقال في وصف أصحاب الحِجر: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الحجر: 82 - 84]، ونهى نبيَّه صلى الله عليه وسلم في آخر السّورة الكريمة مِنْ أنْ يتطلَّع إلى ما في أيديهم من متاعٍ زائلٍ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ

(1) كما في الآيات: الحجر: 73 - 74، و79، و83 - 84، و89 - 93.

﴿... إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: 88].

الموضوعاتُ الرّئيسَةُ للسّورة:

مَـدارُ السّـورةِ حـولَ تقريرِ حفظ الله تعالى لدينه ونصرته لأوليائه

احتوت السّورة على عدد من الموضوعات والمقاصد الأساسيَّة، وأهمُّها: أنَّها افتُتِحت بالحروف المقطَّعة الَّتي فيها تَعرِيضٌ بالتَّحدّي بإعجاز القرآن. والتَّنويهُ بفضل القرآن وهديه، وإنذارُ المشركين بندم يندمونه على عدم إسلامهم، وتوبيخُهم بأنَّهم شَغَلَهُمْ عن الهدى انغماسُهم في شهواتهم، وإنذارُهم بالهلاك عند حُلولهِ إبّان الوعيد الَّذي عيَّنه اللّه في علمه، وتسلية الرَّسول ﷺ على عدم إيمان مَنْ لم يؤمنوا، وما يقولونه في شأنه، وما يتورَّكون بطلبه منه، وأنَّ تلك عادة المكذِّبين مع رسلهم، وأنَّهم لا تُجْدِي فيهم الآياتُ والنُّذرُ لو أُسْعِفوا بمجيء آيات حسب اقتراحهم به، وأنَّ اللّه حافظٌ كتابه من كيدهم.

ثمَّ إقامة الحجَّة عليهم بعظيم صنْعِ اللّه وما فيه من نِعَم عليهم، وذِكْرِ البعث ودلائل إمكانه. ثمّ انتقل إلى خلق نوع الإنسان، وما شرَّف اللّه به هذا النَّوع، وقصَّة كفر الشَّيطان.

ثمّ ذَكَرَ قصَّة إبراهيم ولوط عليهما السلام وأصحابَ الأيكة وأصحابَ الحِجْرِ، وخُتِمت بتثبيت الرَّسول ﷺ وانتظار ساعة النَّصر، وأنْ يصفح عن الَّذين يؤذونه، ويَكِلَ أمرهم إلى اللّه، ويشتغل بالمؤمنين، وأنَّ اللّه كافيه أعداءه، مع ما تخلَّل ذلك من الاعتراض والإدماج من ذكر خلق الجنِّ، واستراقهم السَّمع، ووصف أحوال المتَّقين، والتَّرغيب في المغفرة، والتَّرهيب من العذاب[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/7.

الخصائص الأسلوبيّة والموضوعيّة لسورة الحِجْر:

أوّلا: الخصائص الموضوعيّة:

تتضمّن قصّة قومَيْ ثمود وشعيب، وحفظ الله للقرآن، مع خلق الإنسان وسجوده للرّحمن

وتفرَّدت سورة الحِجْرِ بذكر وصفٍ لقوم ثمود بأنَّهم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ﴾ [الحجر: 80] دون غيرها من السّور، فقصَّة (ثمود) ذُكرت في أكثر من موضع في عدد من السّور القرآنيَّة، فتارة كانوا يُذْكَرونَ باسم ثمودَ، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ [الأعراف: 73]، وتارة يتمُّ ذكرهم بقوم صالح، قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ﴾ [هود: 89]، وتارة يُذْكَرونَ بنسبة أخوة صالح لهم، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٤١ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢﴾ [الشّعراء: 141 - 142]، فكان ذلك دلالة على حفظ اللّه لدينه من خلال سلب الحفظ عن أمَّة تمسَّكت بالمادّيات دون الشرع، فلم ينفعها ذلك، فاللّه الحافظ دون غيره؛ لذا كان الحِجر أكبرَ دليل على وهَنِ الأسباب المادّية.

وتفرَّدت سورة الحِجر بتقرير حفظ اللّه تعالى لكتابه، بتتابع عددٍ من المؤكّدات لا نجده في سورة أخرى بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾. وفي ذلك دلالة على المحور الأصيل من حفظ اللّه تعالى لدينه.

وتميَّزت سورة الحِجر بحديثها عن قوم شعيب بوصفهم بأنَّهم (أصحاب الأيكة) دون قوم مدين، حيث ذُكر لفظ (الأيكة) أربعَ مرّات في القرآن الكريم[1]، وفي ذلك دلالة على القوَّة الاقتصاديَّة التي تمتَّعوا بها من زروع وثمار وبيع وشراء، فلم تحفظهم، وتؤمِّنهم من عقاب اللّه لعدم حفظ منهج اللّه فيها، وتفرَّدت السّورة بوصف أصحاب الأيكة بالظالمين دون بقيَّة المواقع، وفي ذلك إشارة إلى عدم حفظهم النِّعمة.

---

(1) سورة الحجر، الآية: 78، سورة الشعراء، الآية: 176، سورة ص، الآية: 13، سورة ق، ص: 14.

وتفرَّدت سورة الحِجر بوصف خلْقِ الإنسان وخلْقِ الجانِّ، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحجر: 26-27]، فقد ذكَرَ وصف خلق الإنسان من ﴿حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾ [الحجر: 26، 28، 33] ثلاث مرّات في السّورة الكريمة[1]، فنشأة خلق الإنسان من طين أسود له دلالاته، وهو أنَّ هذا الإنسان قد خُلق من شيء ضعيف موهِن متغيِّر منتِنٍ، لكنَّه فاق غيره بتوازنه وحفظه منهجَ اللّه تعالى، فكان من المخلَصين، وأمّا الجانُّ؛ فقد خُلق من نار السَّموم، وهي مَظِنَّةُ القوَّة والهجوم والاختراق، لكنَّها لم ترتقِ إلى ما ارتقى إليه هذا الإنسان لعدم حفظه منهجَ اللّه، فكان الحفظ لهذا الإنسان بذاك الوصف لاتِّباعه شرع اللّه، فكان مخلَصًا لا تؤثِّر فيه غواية السُّموم بقوَّتها واختراقها، وفي ذلك تسلية لرسول اللّه ﷺ في أنَّ اللّه حافظ دينه؛ مهما تعرَّض هذا الدّين للأذى والقوَّة الساعية لهدمه.

وتميَّزت سورة الحِجر بتعدُّد ذِكْر السُّجود فيها، حيث ذُكِر في ستة مواضع[2]، خمسةٌ منها تتعلَّق بالسُّجود لآدم، والأخير منها في الوصيَّة لنبيِّنا محمَّد ﷺ بأنْ يكون من السّاجدين، وفي ذلك دلالة على العناية والاهتمام بالسجود، فهو سببٌ في الحفظ وسببٌ في الطَّرد، ولهذا اعتلاق بمحور السورة الكريمة.

ثانيًا: الخصائص الأسلوبيَّة:

تتميّز السّورة بكثرة ذكر نون العظمة، في خطاب الله ﷻ لعباده

هناك العديد من الأساليب والقضايا اللُّغويَّة التّي مازت هذه السّورة عن غيرها من السّور، وإنْ شاركتها بعض السّور في شيء من هذه الأساليب، منها: تميَّزت السّورة الكريمة بكثرة ذكر نون العظمة في خطاب اللّه ﷻ، فلا تكاد تجد خطابًا إلّا وذُكِرت النون فيها،

(1) الآيات: 26، 28، 33.

(2) الآيات: 29، 30، 31، 32، 33، 98.

مثل قوله: ﴿إِنَّا﴾، ﴿نَزَّلْنَا﴾، ﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ [الحجر: 17]، ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ [الحجر: 16]، ﴿كَفَيْنَاكَ﴾ [الحجر: 95]، ﴿أَهْلَكْنَا﴾، ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿جَعَلْنَا﴾ [الحجر: 16]، ﴿عَلِمْنَا﴾ [الحجر: 24]، ﴿خَلَقْنَا﴾ [الحجر: 26]، ﴿ءَاتَيْنَاكَ﴾ [الحجر: 87]، ﴿نَعْلَمُ﴾ [الحجر: 97]، ﴿مَتَّعْنَا﴾ [الحجر: 88]، ﴿وَنَزَعْنَا﴾ [الحجر: 47]، ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ [الحجر: 19]، ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ [الحجر: 19]، ﴿وَأَنْبَتْنَا﴾ [الحجر: 19]، ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: 22]، ﴿عِندَنَا﴾ [الحجر: 21]، وفي ذلك دلالة على القوة والحفظ للخَلْق والكون والمصير والدين، فكان متناسقًا ومتناسبًا مع حفظ الله لدينه.

تتميّز السّورة، بكثرة المؤكِّدات اللّفظيّة والمعنويّة

وتميَّزت السّورة الكريمة بكثرة المؤكِّدات فيها كما تقدَّم في آية حفظ الذِّكر، وكما في استهلال بعض الآيات بـ(لقد) المكوِّنة من اللّام الدّاخلة على جواب القسم المقدَّر، مقرونة بـ(قد) التحقيقيَّة، وذلك في سبعة مواضعَ[1]، وفي ذلك تأكيد على الخبر، وتسلية وحفظ لقلب النَّبيِّ ﷺ، ومن ثَمَّ يرتبط هذا التَّوكيد بقوَّة بمحور السورة الكريمة في تحقيق الحفظ.

وتارة يكون التَّوكيد المعنويُّ بذكر ﴿أَجْمَعُونَ ۝٣٠﴾ [الحجر: 30]، ﴿أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾ [الحجر: 39، 43، 59، 92]، في خمس مرّات في السّورة الكريمة[2]، من أصل ستّة وعشرين موضعًا في القرآن الكريم، نالت سورة الحِجر منها العدد الأوفر من بين كلِّ السّور القرآنيَّة، وكلُّ ذلك له اعتلاق بالحفظ والتَّأكيد على الإحاطة حفظًا وعناية؛ ليتناسق اللَّفظ، ويتناسب مع محور السورة الكريمة.

تتميّز السّورة، بذكر بعض المقادير والأوقات، وذكر بعض الآجال والنِّهايات

تميّزت السّورة بذكر ما نوّه به في العنوان أعلاه، فقد جاء وصف الكتاب والقَدَر والوقت بـ﴿ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾ [الحجر: 38] في ثلاثة مواضعَ[3]، وجاء الوصف بـ﴿مُّصْبِحِينَ ۝٦٦﴾ [الحجر: 66] في موضعَيْن

(1) الآيات: 10، 16، 24، 26، 80، 87، 97.

(2) الآيات: 30، 39، 43، 59، 92.

(3) الآيات: 4، 21، 38.

اثنَيْن[1]، و﴿مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ [الحجر: 73] في موضع[2]، وبـ ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [الحجر: 65] في موضع[3]، فضلًا عن ذكر التقدُّم والتأخُّر في قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ٢٤﴾ [الحجر: 24]، وقوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، فضلًا عن ذِكر القسمة في ذكر أبواب جهنَّم في قوله: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ٤٤﴾ [الحجر: 44]، وذِكر السّاعة في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾ [الحجر: 85]، وكلُّ تلك المقادير والأوقات والآجال والنِّهايات لها اعتلاق بدقَّة العناية والصّيانة والإحصاء والحفظ، والتي بدورها لها ارتباط بالمحور الرئيس للسّورة الكريمة.

تميّز السّورة، بذكر نماذج من أسلوب الحوار، مع تنوّع أطرافه وشخصّياته

وتميَّزت سورة الحِجر الكريمة بذكر نماذج من أسلوب الحوار في أربعة مواقع: حوار اللّه مع الملائكة وإبليس، وحوار الملائكة مع إبراهيم عليه السلام، وحوار الملائكة مع لوط عليه السلام، وحوار قوم لوط مع النَّبيِّ لوط عليه السلام، وهذا الحوار كان له دور في الحفظ والصّيانة، فكان الحفظ للمؤمنين المخلصين بعد حوار إبليس، وكان الحفظ لقلب إبراهيم عليه السلام من الوجل والقنوط بعد حوار الملائكة، وكان الحفظ للوط عليه السلام وتطمينه وإنقاذ أهله بعد حوار الملائكة له، وكذا الحفظ للوط عليه السلام بإهلاك قومه بعد عدم نفع حواره معهم، فكان لأسلوب الحوار حفظ ورعاية لها علاقة بمحور السّورة.

تميّز السّورة، بتفاصيل مصير قوم لوط المشؤوم، للتّسرية عن كرب خاتم الأنبياء المظلوم

وتفرَّدت سورة الحِجر بذكر كلِّ العقوبات التّي وقعت على قوم لوط، فذكرت السّورة عقوبة الصَّيحة، وقلْبَ الأرض عاليها سافلها،

(1) الآيتان: 66، 83.
(2) الحجر: 73.
(3) الحجر: 65.

ثمّ إمطارهم بحجارة من سجّيل، وهذه العقوبات لم تتكرَّر مُجْتَمِعَةً إلّا في سور الحِجر، وهذا لتحقيق غرض الحفظ والرِّعاية والعناية بقلب النَّبيِّ محمَّد ﷺ في أجواء مشحونة بالكرب والضّيق، فكان التَّفرُّد له اعتلاق بمحور السّورة الكريمة.

تتميّز السّورة، بقلّة فواصل آياتها، مع تقارب مخارج حروف الفواصل مع بعضها

وتميَّزت السّورة الكريمة بقلَّة فواصل آياتها، في الحرف الّذي تنتهي به كلُّ آية من آيات هذه السّورة، ففواصل السّورة الكريمة، تكوَّنت من ثلاثة أحرف، هي: حرف (اللّام) في موضعين، وحرف (الميم)، في ستَّة عشر موضعًا، وحرف (النّون) في واحد وثمانين موضعًا، وهذه القلَّة في التّنوُّع مع تقارب مخارج تلك الحروف مع بعضها قد يدلُّ على الجمع والإحاطة بها بسهولة، فتكون تلك الفواصل لها علاقة بمحور الحفظ والرِّعاية، والله أعلم.

تتميّز السّورة، بألفاظ ذات أوزان خاصّة، لم ترد إلّا فيها

وتفرَّدت سورة الحِجر عن غيرها من السور باشتقاقات وصيغ لم ترد إلّا في هذه السّورة، ومن تلك الألفاظ: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ [الحجر: 54] و﴿ٱلصَّفْحَ﴾ [الحجر: 85] و﴿ٱلْجَمِيلَ ٨٥﴾ [الحجر: 85] و﴿ٱلْحِجْرِ﴾ [الحجر: 80] و﴿ٱلْقَٰنِطِينَ ٥٥﴾ [الحجر: 55] و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ٢٤﴾ [الحجر: 24]، ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ [الحجر: 24] و﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ ٩٠﴾ [الحجر: 90] و﴿بَشَّرْنَٰكَ﴾ [الحجر: 55] و﴿بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾ [الحجر: 22] و﴿بِرَٰزِقِينَ ٢٠﴾ [الحجر: 20] و﴿تَوْجَلْ﴾ [الحجر: 53]، و﴿تُبَشِّرُونَ ٥٤﴾ [الحجر: 54]، ﴿جُزْءٌ﴾ [الحجر: 44] و﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: 21] و﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: 22] و﴿كَفَيْنَٰكَ﴾ [الحجر: 95] و﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ [الحجر: 39] و﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر: 72]، ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾ [الحجر: 43] و﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ [الحجر: 59] و﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ ٧٥﴾ [الحجر: 75] و﴿مَّسْنُونٍ ٢٦﴾ [الحجر: 26] و﴿مَّقْسُومٌ ٤٤﴾ [الحجر: 44] و﴿مَقْطُوعٌ﴾ [الحجر: 66]، ﴿مَّوْزُونٍ ١٩﴾ [الحجر: 19] و﴿وَجِلُونَ ٥٢﴾ [الحجر: 52] و﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾ [الحجر: 17] و﴿يَضِيقُ﴾ [الحجر: 97]، وفي تلك الألفاظ المذكورة دلالات تلقي بظلالها على المحور الرئيس الذي اكتنف السّورة موضوعًا وأسلوبًا.

وأخيرًا حظيت السّورة الكريمة بألفاظ تفرَّدت بها عن غيرها من السّور من جهة الجذر والمادَّة اللُّغويَّة؛ وهذه الألفاظ هي: ﴿لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: 22] و﴿تَفۡضَحُونِ ٦٨﴾ [الحجر: 68] و﴿عِضِينَ ٩١﴾ [الحجر: 91]، وإنَّ الجامع لهذه الألفاظ الثَّلاثة الَّتي تفرَّدت بها السّورة أنَّها ذات اتِّصال مباشر بمحور السّورة من حفظ اللّه لدينه، فلفظ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: 22] شقَّ طريقًا في حفظ الحياة دالًّا على قُدْرَتِهِ ومَنَعَتِه تعالى في حفظ دينه، وذلك من خلال حفظ البشرية بالماء، ولفظ ﴿تَفۡضَحُونِ ٦٨﴾ [الحجر: 68]، جاء في سياق الحضِّ على الحفظ والسّتر للمعاصي وعدم الجهر بها وعدم تجزئة الفطرة السليمة، فهي علامة الهلاك، أمّا لفظ ﴿عِضِينَ ٩١﴾ [الحجر: 91]؛ فقد جاء في سياق توبيخِ مَنْ فرَّق، وجزَّأ القرآن الكريم، تكذيبًا واتِّهامًا وتحريفًا، وهو في مقابل حفظ اللّه للقرآن، فأنّى لها من مقابلة! وكلُّ تلك الألفاظ تندرج تحت اسم السّورة (الحِجْرِ)، فأصحاب الحِجر جاءت عقوبتهم من السّماء جهة اللّواقح، وفضحوا أنفسهم بمعاصيهم، وجزَّؤوا، وفرَّقوا كلام اللّه المنزل عليهم.

مناسبة السّورة لما جاوَرَها:

مناسبة السورة لما قبلها:

السّورة متَّصلة تمامًا بسورتَي إبراهيم والنَّحل مضمونًا وأسلوبًا وغاية

جاءت هذه السّورة في التَّرتيب المصحفيِّ بعد سورة إبراهيم، وقد تَلَمَّسَ وَجْهَ اتِّصالهما الإمامُ البقاعيُّ بقوله: لَمّا خَتَمَ التي قبلها بعنوان الكتاب، ابتدأ هذه بشرح ذلك العنوان، وأوَّله وصفه بأنَّه جامع، والخير كلُّه في الجمع، والشرُّ كلُّه في الفُرْقَةِ، فقال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ﴾، أيّ: هذه الآيات العالية المقام، النفيسة المرام. ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أيّ: الكامل غاية الكمال الذي لا كتاب على الحقيقة غيره، الجامع لجمع ما يقوم به الوجود من الخيرات، القاطع في قضائه من غير شكٍّ ولا تردُّد، الغالب بأحكامه القاهرة في وعده ووعيده وأحكامه في إعجازه لجميع من يعانده[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/2.

وُجـــوهٌ أخــرى للـمـنـاسـبـة، أهمّها أنّ القرآن بــلاغ بـالمـصـير الخطير

وقد ذَكَروا فيها وجوهًا أخرى للرَّبط بينهما، منها: أنّه جاء في آخر سورة إبراهيم قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾ [إبراهيم: 52]، وجاء في أوَّل سورة الحِجر ما يبيِّن طبيعة هذا الإنذار: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾.

وأنّه ذكر تعالى في خواتيم سورة إبراهيم عاقبة الظالمين، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم: 49 - 50]، وقال في بداية سورة الحِجر: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾.

فهذه الودادَةُ إنَّما تكون يوم القيامة عندما يرون العذاب، ويرون نجاة المسلمين وفوزهم بالجنَّة.

وقال ﷻ في خواتيم سورة إبراهيم في الظّالمين: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۝٤٤﴾ [إبراهيم: 44].

وقال في بداية سورة الحِجرِ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، فالَّذين في سورة إبراهيم ألْهاهُمُ الأمل، حتى ظنّوا أنَّهم لا يزولون عن هذه الدنيا، وإنَّما هم خالدون فيها.

بيان حال الدّعوة منذ القديم، وصراع الأنبياء مع المكذّبين، والتّسرية على خاتم النّبيّين

والحقُّ أنَّ كلتا السّورتَيْن يكمِّل بعضها بعضًا؛ فسورة الحِجر بيَّنت أيضًا انقسام النّاس في شأن هذه الدَّعوة، وبيَّنت حال كلِّ فريق، وعرضت لبعض آيات الله في الكون الدالَّة على وحدانيَّته وكماله، وتناولت جانبًا قصصيًّا من حياة بعض الأنبياء بدءًا من آدم أبي الأنبياء عليهم السلام، ومرورًا بإبراهيم عليه السلام وما جرى مع ضيوفه وبشراه بالولد، وكذلك جانبًا من قصَّة لوط عليه السلام، وكذلك قصَّتي أصحاب الأيكة وأصحاب الحِجر، فقد فصَّلت سورة الحِجر ما أوجز في سورة

إبراهيم من وسائل غواية إبليس لآدم وذرّيته، وحوت في آخرها وصايا للنَّبيِّ ﷺ تصلح أنْ تكون قواعد للدَّعوة في كلِّ زمان ومكان، فقال تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: 94 - 99].

مناسبة السورة لما بعدها:

أمّا وجه ارتباطها بسورة النَّحل؛ فيقول عنه المراغي: أنَّه لَمّا قال في سورة الحِجر: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢﴾ [الحجر: 92] كان ذلك تنبيهًا إلى حشرهم يوم القيامة وسؤالهم عمّا فعلوه في الدُّنيا، فقيل في النَّحل: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1]، وأيضًا فإنَّ قوله في آخرها: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: 99] شديد الالتئام بقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1](1).

اشتراك السّورتين في عرض ملامح التّكذيب، ومصائر المكذّبين، وعرض قدرة الله في كلّ حين

وتشترك السّورتان في الحديث عن مواقف المشركين عبر التّاريخ من فكرة الوحي وتكذيبهم وشبههم حول البعث والتَّوحيد والنُّبوَّة، وعن تكذيبهم بالمعجزات والخوارق: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾، وتشترك السّورتان في عرض مشاهد قدرة اللّه تعالى وآياته في الأنفس والآفاق، وتشترك السّورتان كذلك في عرض مشاهد المكذِّبين عبر التّاريخ وما أصابهم نتيجة اسْتِعْجالهِم وتكذيبهم العذابَ: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾. فسورة النَّحل أجملت ما جاء في سورة الحِجر، وفصَّلت في بيان ما كان يجب على أولئك الكافرين من الإذعان لآيات اللّه في الكون المسخَّر لهم.

(1) المراغي، تفسير المراغي: 14/51.